نظام الوصف في خبر "تلاقي الأرواح وتعارفها" لأبي إسحاق إبراهيم الحُصْري القيرواني*.

محمد عرعاري

باحث، تونس

الملخّص

ينصبّ اهتمام هذه الدراسة على خطاب الوصف ضمن جنس سردي مخصوص وهو جنسّ الخبر" في نصّ " تلاقي الأرواح وتعارفها " لإبراهيم الحصْري القيرواني ، وذلك بِتَمييز الحيّز الذي يشغَله هذا الخطاب داخل فضاء النص وبتبيّن أنماطه التي توزّعت على أنحاء مختلفة : وصف عن طريق الرّؤية ، وصف عن طريق الشمّ ، وصف عن طرق النّظر ... إلى جانب استصفاء مجمل الوظائف التي نهض بها هذا الخطاب في النص وتتمحور خاصّة حول الوظيفة التعبيرية ، الوظيفة التشويقية ، الوظيفة الرّمزية ، الوظيفة التأجيلية والدلالية ...

وقد جعلت مختلف هذه الوظائف من الوصف مُكونا خطابيا تعبيريا مُهمّا في نصوص الأخبار قديما .

يكشف خطاب الوصف (discours de description) في كل عمل فني –باعتباره نسقا تخييليا تصويريا بالدرجة الأولى– عن درجة عالية من درجات النظْم والصياغة خاصة في ما يتعلق بالتّمثيل للمعاني وهو ما جعله يقوم أساسا على "إظهار الأشياء وتمثيلها"[1]. ذلك أن لهذا الخطاب سلطة كبيرة على فنّية الأسلوب و دقة صياغته انطلاقا من طريقة التوزيع وكيفية الصياغة وصولا إلى أشكال التّركيب (figures de construction). ورغم هذه الأهمية التي اكتساها ورغم أنه يحتل موقعا من الحيز النصي كالسّرد و الحوار إلاّ أنّ أصحاب التحليل النقدي من علماء القصص لم يُولوا الوصف أهمية تُذكر سوى أنّه "قطعة مقلقة أو هو مجرد خادم لسيّد اسمه السرد"[2]. لكن بين هذا وذاك يبقى الوصف مرحلة

*– الحصْري (أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري القيرواني): المصون في سرّ الهوى المكنون. دراسة وشرح وتحقيق الدّكتور التّوي عبد الواحد شعلان، دار سحنون للنّشر والتوزيع، 1990، أنظر النص ص66 .

[1]- قدامة بن جعفر: نقد الشعر المطبعة المليحية، القاهرة ط 1935، ص 70

[2]– فيليب هامون: في الوصفي, تعريب سعاد التريكي, المجمع التونسي للعلوم و الأداب و الفنون, بيت الحكمة ط 2003, ص 7.

خلاّقة في الخطاب القصصي بدءا بالمستوى الوظائفي و ما يكون له من أثر شكلي و دلالي و رمزي في القصة. من هنا فإن كل كلام يحمل في ذاته طاقة وصفية تهدف لتحقيق غايتين غير منفصلتين هما التأثير والإقناع ثم إنه إلى جانب هذا ليس منهجا حديثا و إنما هو ممارسة قديمة قِدم الأدب ذاته لا تكاد تخلو منها أي كتابة لأنه يعرب عن مقدرة بلاغية تصويرية يتميز بها المبدع و هذا ما أَهَّلَهُ إلى أن يكون أداة من أدوات الإنشاء الفني القائمة على المحاكاة (mimétique).

إن وظيفة الوصف إذن مهمة داخل فضاء النص لأنها تنجح في جعلنا نرى عالم القصة بكل ما يحتويه من مكان و زمان و شخصيات وأشياء عرضية رؤية مادية ملموسة حتى ليَجوز لنا أن نقول إن أبلغ القصّ ما قلب السّمع بصرا "على غرار قول ابن رشيق أبلغ الوصف ما قلب السمع بصرا"[1]. ومن هذا المنظور فإن "أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنه يُصوّره فتراه نصب عينيك"[2]. ومأتى هذه الرؤية هي عملية تمثيل الواقع المادي بكل تفاصيله تمثيلا يؤكد وظيفته الإبداعية بوصفه مكونا من مكونات الخطاب وبصفته حيّزا نصّيا يحظى بالاستقلال يشتغل وفق خطة مخصوصة.

و قد توجّهنا في هذا العنصر إلى مقاربة الوصف بدراسة أنماطه ووظائفه الحكائية والدلالية و يُعد كتاب المصون في كليته المدخل الأمثل لمقاربة هذا المقوم الخطابي إذ استوعبت نصوصه أهم تقنية فنية تعد بحق من مستلزمات الشعر في القرون الأولى. قدّم الحصْري في كتابه رصدا ماديا تحليليا لظاهرة روحية نفسية لا يُستدل عليها في الواقع و هي ظاهرة الحب. و إذا كان الحب أعظم من أن يوصف، فإننا في هذا الكتاب نجد وصفا متميزا لهذه الظاهرة وكل ما يتبعها من شخصيات وأمكنة وأزمنة وفضاء طبيعي...، وقيمة هذا الوصف أنه لا يكتفي برصد المعايير المادية فقط. بل إننا إلى جانب ذلك نجد تتبعا وصفيا لأحوال الشخصيات النفسية وما يحركها من الداخل. ويحتوي هذا الفضاء الوصفي على كم هائل من المصطلحات السيكولوجية تأدّت بلغة ترشَحُ إحساسا وعاطفة متفجرين. و يعد الوصف في هذا المستوى أليق بهذا الموضوع من أي تقنية أخرى لأنه "كثيرا ما ينقلب إلى حركة إدراكية للأشياء"[3]. و بالتالي فهو يشكل شبكة رمزية تعد جزءا من نظام نفسي عام به تتحدد بؤر نفسية عديدة في

---

[1]- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، حققه وفصله وعلق على حواشيه محي الدين عبد الحميد: دار الجيل, بيروت، ط 5 1981، ج 2 ،ص 295

[2]- أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين: الكتابة و الشعر ،تحقيق محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت 1986، ص 128

[3]- محمد الخبو: الخطاب القصصي في الرّواية العربية المعاصرة من سنة 1976 إلى سنة 1986 دار صامد للنّشر والتوزيع،ط1،2003، ص 93

الشخصيات. وهذا ما جعل الكتاب في مجمله دراسة تحليلية مفصلة لظاهرة الحب كان للوصف فيها دور رائد ودقيق أكسب الكتاب بريقا خاصا.

انطلاقا مما تقدم تطرح هذه الدّراسة كيفية اندراج الوصف في النص وكيفية اشتغاله داخله ومدى تأمينه للتماسك والتجانس (homogénéité) بين مختلف عناصر القص وسنختبر كافة هذه المستويات في نص "تلاقي الأرواح وتعارفها (خبر الحسن بن عليل العنزي)"[1].

جاءت المقاطع الوصفية في هذا النص مختلفة من حيث مواقعها. إذ نجدها في بداية الخبر وحشوه و نهايته. وقد كانت البداية هنا بمثابة النقطة التي تُؤَشِّرُ على الانطلاقة الوصفية. وجاءت ممهدات الوصف هنا مقترنة بالحديث عن الشخصية التي سيتابعها القص، وقد كان للناسخ الفعلي "كان" والضمير الغائب المحيل على الشخصية دور مهمّ في خلق مناسبة للوصف. "كان لي خليل من عذرة"[2] و يتنزل دوره في هذا المستوى في إطار التعريف بالشخصية أو خلق صورة ذات طبيعة نفسية تشي بمحتوى الموضوع. يقول: "كان (...) مشتهرا بحديث النساء. يصبو إليهن. وينشد فيهن الأشعار. إلا أنه كان لا عَاهِرَ الخلوة ولا سريع السلوة"[3]. يوحي هذا المِمَهِّد الوصفي بنشأة الحدث في بداية الخبر وتطوّره في مراحل لاحقة من القصة. وهذا ما يكشف عن تعالق الحدث القصصي بالوصف.

و إذا ما فحصنا لغة الوصف وبحثنا فيها نجد أن سلسلة الصفات المثْبتة متعلّقة أساسا بذلك الجانب الخفي الذي لا يدركه البصر. فبنية الوصف إذن كانت بمثابة علامة استكشافية (heuristique) لخاصّية أو لعاطفة ستكون بمثابة النواة الرئيسية المشكّلة للقصة. وتتمثل هذه النواة في البعد الوجداني العاطفي وطغيانه على كل الأحداث الرئيسية في النص. وعلى هذا الأساس فإن حركة الوصف تنطلق مما هو نفسي إلى ما هو خارجي في أوضاع قليلة. يقول: "فإذا بإنسان أقبل عليّ قد تغير لونه وساءت هيئته"[4]. لكن في الغالب تكون هذه الأوصاف في اتجاه واحد نفسي بالأساس يكون مساهما في التعبير عن سيرورة تشهدها الشخصية. وهذا يؤكد مرة أخرى قيمة الوصف ودوره في جعل القصة غير مقصورة على حركة الأعمال و الأفعال لتكون إلى جانب ذلك حكاية أوضاع وأحوال وصفات قائمة على خلفيات دلالية لا حصر لها.

---

[1] – المصون: ص 66، ارتأينا أن ندرس الوصف في هذا الخبر للأسباب التالية، أولا لأنه يحفل بإشارات تتعرض للوصف بصفة مباشرة، ثم لأنه محكوم وناطق بأشكال العلاقة بين الشخصيات وقد كان الوصف فيه موحيا بطبيعة هذه العلاقة.

[2] – المصدر نفسه: ص 66

[3] – المصدر نفسه: ص 66

[4] – المصدر نفسه: ص67

انطلاقا من هذه المعطيات المؤثرة في طبيعة وصف الشخصية. وجدنا هذه الطبيعة تحيل أساسا على أغوار النفس لأنّنا لا نجد وصفا حركيا (dynamique) أو عملا تقوم به الشخصية على الأقل في هذا المستوى من النص. و تتبُّعنا لحركة الصفات يؤكد ما ذهبنا إليه، و يمكن أن نجسم هذا انطلاقا من المستويات التالية[1]: أولا مستوى موضوع الوصف (thème-titre) وهو "الخليل" أبي المِسْهَر, ثانيا مستوى فروع الوصف (parties ou sous-thèmes) وهي ذات طبيعة معنوية نفسية بالأساس. ثالثا مستوى عناصر الفروع منظّمة (nomenclatures) وهي تتلخص في العبارات التالية، الخلوة، السلوة، الصّبوة، رابعا مستوى مدار الإهتمام (centre d'intérêts) وتتعلق بطبيعة الخليل وماهيته. إن المتأمل في هذه المستويات يلحظ أن الواصف (descripteur) يَسِمُ الشخصية الموصوفة بطابع محددّ مداره على حكاية الأحوال والأوضاع لا مجال فيه لرصد الحركات و الأعمال. ومن العلامات التي تؤشر على ختم هذا المقطع الوصفي هي عودة السرد الذي يبرز هنا عادة الخليل مُوافاة الموسم كل سنة، يقول: "كان يوافي الموسم كل سنة"[2]. وانقطاعه عنه فجأة، ومن هنا فإن هذا الغياب كان بمثابة المعرقل لفعل الوصف وهو ما يفسح المجال لظهور السرد في حركة تنازع بينهما لا يَنِي.

و إذا ما تدرجنا في النص فإننا نجدنا أمام تطور في حركة الوصف بطريقة غير محددة تنبئ عن هذا عديد القرائن التي وردت بأسلوب ضمني (implicite) وغائم، يقول: "أصبح أبو المسهر لا مُؤيسا منه فيُمهل ولا مرجوا فيُعلل"[3]. و قد جاء الناسخ "أصبح" مواكبا و مؤكدا لحالة التطور التي عرفتها الشخصية، إضافة إلى هذا فإن هذا التغيّر راجع أيضا إلى تغير عون الوصف[4] وإلى تنامي الأحداث وتطورها. وهو ما جعله مساهما في البناء النصي ويحدد دواخل الشخصيات ويخضع له ،فالوصف يتدرج من بداية القصة وصولا إلى اكتمال صفات الشخصية في نهايتها و هذا ما سنراه بأكثر وضوح مع الجارية.

تتبدى لنا شخصية أبي المسهر في "برنامج وصفي"[5] جديد. و قد كان الفاتح لهذا الوصف التساؤل عن يوم الدوحة. يقول "وما يوم الدوحة"[1]. يضطلع الوصف هنا بتبرير الموقف أو الحالة التي

---

[1]- أخذنا من هذه المستويات عن الصادق قسومة في كتابه طرائق تحليل القصة،دار الجنوب للنّشر،تونس ط1 2000 ص 179

[2]- المصون: ص 66

[3]- المصدر نفسه: ص 67

[4]- يرى جيرار جينيت أن الأوصاف تتغير عندما لا يكون المنظور الوصفي واحدا ، انظر: figure III,ed ,seuil 1972 p 207

[5]- محمد نجيب العمامي: الوصف في رواية "ترابها زعفران" لادوارد الخراط، حوليات الجامعة التونسية عدد 46, سنة 2002، ص 422

عليها الشخصية. يقول: "إني رجل ذو مال كثير من إبل ونعم"[2]. وهو وصف عن طريق القول (description de type dire). و يتعالق هذا الوصف مع السرد ،ذلك أن من وظائفه تبرير اندراجه في سياق سردي وهو ما يستدعي خلق مناسبة[3]. وهي –كما ذكرنا– التساؤل عن يوم الدوحة، و هي المرحلة التي سيكون لها أثر مهم في توجيه دلالة الخبر برمته لأنها تساهم في تركيب المشاهد وتنظيمها بأسلوب ينصبّ أساسا على الحدث الرئيسي وعلاقاته. إذ يلجأ الراوي إلى تناول التفاصيل التي ساهمت في تغيير حاله وجعلته يعاني من القلق النفسي ويتقلب في دوامة مُظلمة ومُهلكة. و عن طريق حركة استرجاعية سردية بيّن الراوي الأطوار التي مر بها وصولا إلى النقطة التي مثلت المنعرج في الأحداث. يقول: "وإني خشيت على مالي من التّلف، فأتيت أخوالي من كلب. فأوسعوا عن صدر المجلس ... وكنت فيهم خير ابن أخت. خرجت إلى ما يقال له الحزرات، فركبت فرسي، وتعلقت شرابا... حتى إذا كنت بين الحي و مرعى النعم رُفعت دوحة عظيمة ... فنزلت و شددت فرسي ببعض أغصانها ثم جلست تحتها"[4]. إن هذا المقطع السردي الذي يأتي بعد ومضة وصفية (إني رجل ذو مال كثير من إبل ونعم) مُهمّ من حيث الإعداد لترابط منطقي و عضوي بين أحداث القصة. وذلك من خلال خلق صورة تُشير إلى واقع الراوي في الماضي. وتأتي أهمية هذا المقطع أيضا في الإعداد "لبرنامج وصفي" جديد. يقول: "ثم جلست تحتها فإذا بغبار قد سطع من ناحية الحي، يطرد مسحلا وأتانا فلمّا قرُب منّي..."[5]. إلى جانب هذا فإن ظهور شخصية جديدة محور وصف كانت بمثابة "نقطة عبور"[6] من السرد إلى الوصف. ويمر وصف هذه الشخصية انطلاقا من المسافة التي يتخذها الرائي للوصف وتظهرها عبارة "فلما قرب مني"[7]. و الموقع الذي أُنجزت فيه الرؤية الوصفية. وهو موقع يشي بأن الرائي ثابت في المكان. يقول "لو نزلت و قِلْتُ تحت هذه الشجرة (...) فنزلت وشددت فرسي ببعض أغصانها، ثم جلست تحتها"[8]. و قد تم هذا الوصف عن طريق مراقبة فعل هذه الشخصية، وكانت المسافة هنا بين الواصف والموصوف لها تأثير في دقة الوصف وحرفيته. يقول: فإذا بغبار قد سطع من ناحية الحي يطرد مسحلا وأتانا فلما

---

[1]– المصون: ص 68

[2] – المصدر نفسه: ص 68

[3] – محمد نجيب العمامي: الوصف في النص السردي بين النظرية والاجراء ، دار محمد علي للنشر ط 1 2010, ص 76

[4] –المصون: ص 68

[5] – المصدر نفسه: ص 68

[6] – محمد نجيب العمامي: الوصف في النص السردي، ص 73

[7] – المصون: ص 68

[8] – المصدر نفسه: ص 68

قرب مني فإذا عليه درع أصفر و عمامة خز سوداء ، و إذا هو ينال فروع شعره كَتِفَيْهِ"[1]. يصف الراوي هنا عن طريق الرؤية (description de type voir) تفاصيل الشخصية بكل دقة. وقد كان قربه منها مساهما في تحديد هذه الدقة إذ لا ينتقي من الصفات إلا ما كان خادما للمعنى القصصي فيصف ملبسها "درع أصفر ، عمامة خز سوداء" ، و يقدم إشارة عن شكلها. "و إذا هو ينال فروع شعره كتفيه" وكذلك يصف حركتها " فما لبث أن لحق المسحل و طعنه فصرعه ثم طعن الأتان"[2]. يرسم هذا الوصف الوصف مفارقة تتصل بملامح هذه الشخصية وملبسها وعملها ، إذ بالرغم من القدرة على الرؤية (pouvoir de voir) فإن السياق العام للنص يشير إلى هذه المفارقة من خلال ومضة ناطقة بهذا التناقض. يقول: "إذ هو ينال فروع شعره كتفيه"[3]. و أيضا قوله: "قلْتُ في نفسي غلام حديث عهد بعرْس ، أعْجَلَتْه لذّة الصّيد ، فنسي ثوبه وأخذ ثوب امرأته"[4]. يجيء هذا الوصف كنوع من التمويه والتضليل لخدمة التركيبة القصصية في تغيرها في لاحق النص ، و هذا النوع من الوصف كما ذهب إلى ذلك سامي سويدان "هو وسيلة قصصية للإثارة و التشويق قد يكون للمحافظة على وضع غامض أو سري يتلاءم مع عملها و وظيفتها"[5] في النص.

الوصف إذن متدرج في الكشف عن هوية الشخصية من خلال تقديم إشارات دالة يظهر هذا عن طريق عنصر تكويني مفعم بالرمزية من خصائصه مواصلة التدرج الذي يشد المعنى القصصي ذو الطابع الرمزي. يقول: "فبينا هو كذلك إذ نكث بالسوط على ثنيّته ، فرأيت والله يا ابن أبي ربيعة ظلّ السوط بينهما"[6]. و قد تعالق هذا المشهد عالمان: عالم مادي حسي "رأيت ظل السوط بينهما" ، و عالم داخلي داخلي يتجسد انطلاقا من أثر ضرب السوط على الثنية في نفسية الراوي. يقول: فما ملكت نفسي إن قبضت على السوط (...) إني أخاف تكسرهما ، إن هما رقيقتان... عذبتان"[7]. إن هذا "الوصف الشاعري" كما تقول حياة بربوش[8] يقوم على لغة إنشائية تنهض انطلاقا من تمثيل ما هو مادي ومعنوي. ومعنوي. إذ تلتبس الصورة المبتكرة هنا بأبعاد الذات المنفعلة عبر نسق يربط تعبيرية الأشياء بدلالية الانفعال. دون أن يشد هذا النسق عن تلك الرمزية و الغموض اللّذين يلفان الشخصية ويسترعيان انتباه

---

[1] – المصدر نفسه: ص 68

[2] – المصدر نفسه: ص 68

[3] – المصدر نفسه: ص 68

[4] – المصدر نفسه: ص 68

[5] – سامي سويدان: أبحاث في النص الروائي،دار الآداب ط1 2000 ص 132

[6] – المصون: ص 69

[7] – المصدر نفسه: ص 69

[8] – شعرية الخطاب الروائي في السرد النسائي المغاربي ، المغاربية للطّباعة و الإشهار ط1 2011 ، ص 179

القارئ. وهذا النسق هو الذي جعله يتابع القص بحثا عن معنى يفك هذه التشفيرات النصية التي تتحول إلى وسيلة فنية ذات إيحاءات تعبيرية خلاقة. وما يعزز هذا هو تحول الوصف إلى عنصر آخر وهو وجه الشخصية. ومن معلنات هذا الوصف فعل الرؤية والنظر "نظرت". يقول: "فلما شرب نظرتُ إلى عينيه كأنهما عينا مهاة قد أضلت ولدا أو ذرْعُها قانص"[1] . انصب الوصف هنا على عيني الشخصية و هي عيون تختلج فيها الأنوثة والإحساس. فأجج ذلك وجد أبي الفضل وصبابته. و إذ لم يقع التنصيص على هذه الصبابة والوجد هنا باعتبار ورودهما بطريقة ضمنية فإن الوصف يؤشر على طبيعة الأثر الذي يتركه سياقيا مستفيدا من قدرات القارئ وكفاءته*. و تتأكد أهمية هذا الوصف من خلال ارتباطه بالشعر الذي ساهم في خلق صورة لها وظائفها النفسية والدلالية. يقول:

[البسيط]

"إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِيْنَ قَتْلاَنَا

يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِ حَتَّى لَا حِرَاكَ بِهِ وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ الله أَرْكَانَا"[2].

يأتي الشعر هنا لإضفاء جو شاعري ووجداني يعكس ما يمكن أن يجول في خاطر الشخصية. ويستمر النص في حركة يتجاذبها الوصف والسرد في تعداد صفات هذه الشخصية ، فحركة السرد السابقة للوصف تأتي لتفسح له (الوصف) المجال ولتدمجه بالسرد إدماجا طبيعيا. وهو ما جعل العلاقة بين السرد والوصف علاقة تكاملية. ويؤكد من جهة أخرى أن الوصف لم يحضر في النص اعتباطا ولم يسقط إسقاطا و إنما هو مكون خطابي لا محيد عنه. و هذا ما لا يجعلنا نتصور سردا بدون وصف مقابل إمكانية وجود وصف بدون سرد"[3]. يقول: "ثم قمت لأصلح شيئا من أمر فرسي, ثم رجعت و قد حسر عن وجهه العمامة"[4]. و قد كان الفعل حسر "بمثابة القادح لفعل الوصف ، و هذا الفعل اكسب الوصف حيوية وحركية. فهو من جهة لا يجعلنا نحس بتعطل الأحداث تعطلا تاما ومن جهة أخرى "يقربه من الطابع

---

[1] – المصون: ص 69

*– إدراك نظم الوصف وأبعاده متوقف على قدرة الدارس ومهاراته في تفكيك مكونات جانب الوصف من الخطاب وفهم الأساليب والإيحاءات والأبعاد في مستويات مختلفة. انظر الصادق قسومة: طرائق تحليل القصة، ص 162

[2]– المصدر نفسه : ص 69.

[3] - Voir G. Genette, « Frontières du récit in l'analyse structurale du récit », *Communication*, n°8, collection Points, Paris, Seuil, 1981, p. 163.

[4] – المصون: ص 69

الشفوي والنقل المباشر للحدث"[1]، لأن هذا الفعل إقترن بحركة بصر الشخصية الواصفة التي تمدنا بالتفاصيل اللازمة حول الأحداث وتطورها. قلنا إنّ مُعلن الوصف هنا هو الفعل "حَسَرَ" الذي يأتي بعده مباشرة مشهد وصفي يختزل العديد من المشاعر والرؤى و المواقف. يقول: "فإذا هو غلام كأن وجهه الدينار المقسّم ... قال: كيف قلت ذلك؟ قلت: ممّا راعني من نورك و بهرني من جمالك"[2]. أبرز هذا الوصف حالة الراوي النفسية الممتزجة بشحنات حسية عاطفية دافقة، فهو في هذا النص ليس إلا تعبيرا عن حالة نفسية معينة يعانيها الراوي إزاء هذا الجمال الأخّاذ للشخصية الموصوفة ، لأنه يحمل من الإحساس وتصوير الداخل ما عجز عنه السرد وعلى هذا ارتبط الوصف بالقاعدة النفسية للشخصية أو التأثير الذي يحدثه ، و من ثمة فهو حَقيقٌ بأن يوصف بما يتميز به نظام وصياغة ترسم وظائفه ودلالاته الناتجة عن علاقته بسيرورة الأحداث و تناميها.

إننا هنا إزاء خط وصفي يتحسس ويتعرف على الموصوف و هو ليس بمعزل عن الشخصية الواصفة حتى لكأن هذا الوصف يُعدّ كشفا لأحاسيس الواصف تُجاه الموصوف. ويظهر هذا من خلال هذه المقارنة (وجه كأنه الدينار المقسم ≠ قلت مما راعني من نورك و بهرني من جمالك). فبيان صفات الحسن والجمال لدى الموصوف قابله انبهار الواصف وتأثّره و شدّة كلفه بهذا الموصوف فيُضحي الوصف إذن قرين أحوال الواصف وأوضاعه.

في سياق التدرّج في الكشف عن هوية الشخصية يقدم النص في إطار يكتنفه الوضوح أهم مُؤشّر وقرينة تُزيل الغموض والضبابية اللذين اكتنفا الشخصية الموصوفة طيلة مقاطع هامة من النص. يقول: "فلما برقت لي بارقة من الدرع فإذا ثدي كأنه حق عاج"[3]. تأدّى هذا الوصف عن طريق الرؤية وهي رؤية الشخصية التي ترى و تدرك. إن من مميزات هذا المقطع الوصفي هو كشفه حقيقة هذه الشخصية. التي جعلنا الوصف منذ بداية النص وإلى حدود هذه الإشارة الوصفية نظن أننا إزاء شخصية رجل وما زاد في هذا الغموض ودلالته هو الضمير الخاص بها "الهو". و رغم وجود بعض الصفات الرمزية المحيّرة فإن قارئ النص قد لا يستطيع الجزم بشأنها. وأقصى ما يملكه هو متابعة النص بحثا عن المعنى. وهذا ما تعهد به الوصف وعاضده الحوار التالي: قلت: "نشدتك الله ، امرأة تحب الغزل وتكره العهر؟ قالت: وأنا والله كذلك"[4]. ينتقل الوصف بعد ذلك إلى عنصر آخر في الشخصية الموصوفة وهو وصف عن طريق الشم. "شممت" واللمس "لمست" يقول: أعطتني بنانها فشممت والله منها المسك المفتوق ولمست كالسياب

[1] – محمد نجيب العمامي: الوصف في النص السردي بين النظرية و الإجراء, ص 78

[2] – المصون: ص 70

[3] – المصدر نفسه: ص 70

[4] – المصدر نفسه: ص 70

الممطور"[1]. تُوهم الأفعال "شممت" و "لمست" أن أبا الفضل يصف ما يرى وهو ثابت في المكان و لكن النظر في المستوى السردي السابق لهذين الفعلين يؤشر على أن الشخصية الموصوفة في حالة حركة. يقول: "فلم تلبث أن انتبهت مذعورة فلاثت عمامتها برأسها وأخذت الرمح و جالت على متن الفرس... فأعطتني بنانها"[2]، إن هذا المقطع السردي علاوة على كونه يكشف حركة الموصوف ومن بعده حركة الواصف، فإنه إلى جانب ذلك يقف بمثابة المعلن عن نهاية المقطع الوصفي و هو ما يختزله الفعلين المتقابلين "حسر عن وجهه العمامة"[3]. و"لاثت عمامتها برأسها"[4]، فالفعل الأول كان بمثابة المعلن عن الوصف والفعل الثاني كان بمثابة الخاتم لهذه الحركة.

نتبين من خلال هذا أن الحُصْري يحرص على تأطير المقطع الوصفي بإبراز حَدّيْه بداية ونهاية ذلك أن الاهتمام بالتمهيد للمقطع الوصفي لم يفُق اهتمامه بختمه وهذا يقيم الدليل على أنّ الخطاب الوصفي في كتاب المصون يخضع إلى تنظيم محكم ودقيق لأنه يحيل على علاقات التفاعل بين الأحداث والشخصيات وهذا ما جعله على اتصال بالنظام الدلالي في النص وأهّله لأن يكون "طرفا في التحكم في الفهم"[5]. من وظائفه الرئيسية "وظيفة تأدية المعنى"[6] (la fonction sémiosique). تقوم هذه الوظيفة على عنصر مهم من عناصر الوصف وهو الوصف المبئّر (description focalisée) القائم على خاصيّة الاستبطان. لذلك نجده موصولا بالشعور الباطني الخاص بالواصف. وهو ما سُمّي "بالعلاقات الممكنة بين حركة الوصف و حركة النفس"[7] . فساهم بذلك في تشكيل دلالة النص الإبداعي.

لقد تضمّن الشعر في هذا النص الذي جاء زاخرا بالأفكار والأحاسيس مقاطع وصفية للموصوف والحدث. و هذا ما جعله يُعتمد كوسيلة للتمثيل والعرض. ولتأكيد الصفة في بعض الأحيان أو للإيحاء بموقف في القصة. وينطق هذا المقطع النصي بما أشرنا إليه. يقول: "فلما شَربَ نظرتُ إلى عينيه كأنّهما عينَا مَهَاةٍ قد أضَلّتْ ولدا أو ذَرْعُهَا قانِصُ، فعلِمَ أين نظري فرفع عقيرته يتغنى:

---

[1] – المصدر نفسه: ص 70

[2] – المصدر نفسه: ص 70

[3] – المصدر نفسه: ص 69

[4] – المصدر نفسه: ص 70

[5] – محمد نجيب العمامي: الوصف في النص السردي بين النظرية والاجراء، ص 181

[6] -J. Michel Adam & A. Petit Jean, *Le texte descriptif : poétique historique et linguistique textuelle*, Paris, Nathan, 1989, p. 26.

[7] – حياة بربوش: شعرية الخطاب الروائي في السرد المغاربي، ص 176

"إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِيْنَ قَتْلاَنَا

يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِ حَتَّى لَا حِرَاكَ بِهِ وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ أَزْكَانَا "[1] .

إن الشعر إذن جاء مواكبا لهذه النزعة الوصفية والوجهُ في ذلك أنهما تكرسا معا لخدمة المعنى القصصي ويمكن أن نتحسّس هذا المنزع القصصي في الشعر انطلاقا من عنصر التشويق والإيحاء و الرمز وكذلك اختزال الأحداث والتمهيد لها حتى تظهر في سياق سردي مخصوص، يقول:

[مجزوء الرجز]

"يا رَبَّ كُلِّ غَدْوَةٍ وَ رَوْحَهْ مِنْ مُحْرِمٍ يَشْكُو الضُّحَى وَ لَوْحَهْ

أَنْتَ حَسِيبُ الْخَطْبِ يَوْمَ الدَّوْحَهْ"

فقلت: و ما يوم الدوحة؟[2]

نهض هذا البيت الشعري بوظيفة تركيبية في النص من خلال الربط بين المقاطع النصية ربطا أساسه التفاعل والانسجام. وبالتالي فهو يُمهد السبيل أمام الأحداث بسلاسة ويسر. "ينهض الوصف في نص المصون بعدة وظائف"[3]، ومن الوظائف التي نحسبها هامة في هذا النص والكتاب بصفة عامة نذكر وظيفة وظيفة الاستبطان (la fonction introspective) التي أوحت لنا بخلجات النفس وخواطر الذهن وانفعالاته. فالوصف هنا يغدو مرآة تعكس شذرات الشعور والأحاسيس التي استبدت بالشخصية الرائية تجاه الشخصية الموصوفة. وإن لم يقع التصريح بهذه الأحاسيس في بداية النص بسبب إلتباس الرؤية حول جنس الشخصية الموصوفة. فإننا نجد الملفوظ (Enoncé) مترعا بالإيحاء (connotation) والرمز لتبرير معنى معين، وعلى هذا الأساس ارتبطت هذه الوظيفة بالوظيفة التبئيرية أو المبئرة (la fonction focalisatrice) التي تغوص في باطن الشخصية فتكشف لنا ما يحركها. هذا إلى جانب الوظيفة التعبيرية (la fonction expressive) التي تجعل علاقة الوصف بالمعنى علاقة متينة. إذ

---

[1]- المصدر نفسه : ص 69.

[2] - المصدر نفسه: ص 68

[3] - ضبط فيليب هامون (Philippe Hamon) خمس وظائف للوصف هي كالتالي: وظيفة الفصل (la fonction démarcative)، ثانيا الوظيفة الإرجائية أو التمطيطية (la fonction dilatoire)، الوظيفة الزخرفية (la fonction décorative)، رابعا الوظيفة التنظيمية (la fonction organisatrice)، خامسا الوظيفة المبئرة (la fonction focalisatrice). انظر Qu'est-ce qu'une description, in poétique n° 12, 1972, p 484

تُوحي بنشأته و تطوره. فهذه الموضوعات لا تحضر في النص على هيئة لا راتب ومسوغ لها وإنما هي بنية عظيمة الانسجام يحكمها نظام دقيق لخدمة معنى معين.

إن مختلف هذه الوظائف تتصل بوظيفة كبيرة ورئيسية ترتبط أساسا بدور اللغة في التعبير عن مغزى ما وهذه الوظيفة هي الوظيفة الدلالية للوصف (fonctions sémantiques de la description) فهذه الوظيفة تجعل الملفوظ مهما كان نوعه سرديا، حواريا، وصفيا متجذرا في معنى و دلالة معنيين.

إلى جانب هذا ينهض الوصف بوظيفة أخرى لا تقل أهمية عما سبق ذكره. و هي الوظيفة الإرجائية أو التأجيلية (fonction dilatoire) التي ينتج عنها تمطيط الحكاية وإطالتها. فهذا التمطيط يكسر السرعة الزمنية (ويخفف من وتيرتها ولكنه لا يوقفها تماما) التي تَتَعَجّلُ ما ستؤول إليه الأحداث وترتبط هذه الوظيفة بالوظيفة التشويقية للنص. يظهر ذلك من خلال تواتر المؤشرات التي تتدرّج لتكوين الصورة الكلية للشخصية محور الوصف.

قلنا إن هذا الوصف يكسر السرعة الزمنية ولكنه لا يوقفها تماما لأنه ارتبط بحركة الإسترجاع. إذ يرتدّ الرائي إلى لحظات مضت ولكنها مهمة في حاضر السرد وضرورية. لماذا؟ لأنها تشكّل لحظة مفصلية في فهم الحكاية وتنظيمها على نحو منطقي. وتعلّق سيزا قاسم على طبيعة هذه الوقفة الزمنية فترى أن "هذا الوصف يخضع إلى خطية الكلمة والنص الأدبي وزمنيتهما"[1]. فبالرغم من أن الزمن الروائي متوقف فإن الزمن النصي يسير إلى الأمام دون أن يتحرك القص"[2]. ثم إن هذا الوصف لا يرتبط في الغالب الأعم بما هو ثابت وإنما هو يرتبط أيضا بما هو حركي، أي أنه يتابع الموصوف وهو في حالة حركة عن طريق ما يسمى بالوصف المسرّد (description narrativisée) أو ما تسميه سيزا قاسم "الوصف السردي"[3] (récit descriptif). و هذه الحركة حتما لن تكون مفصولة عما هو زمني. و ما يؤكد ذلك أن الوصف في كتاب المصون لا يرد في جمل إسميّة فقط بل هو يفيد أيضا من الجمل الفعلية. ولنا في نص "أثر الهوى في أبواب الفضائل"[4] ونص "أجناس الحب"[5] خير دليل على ذلك، ويحفل كتاب المصون بمثل هذه النصوص التي تقدم الصفة "على أنها فعل بصدد الوقوع"[6] . وهكذا يأخذ الوصف بُعدا حركيا

---

[1] – سيزا قاسم: بناء الرواية دراسة مُقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامّة للكتاب ط1984، ص 113

[2] – المرجع نفسه: ص 113

[3] – المرجع نفسه: ص 113

[4] – المصون: ص 46

[5] – المصدر نفسه: ص 78

[6] – محمد الخبو: الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة، ص 88

فسلسلة الصفات المقدمة متعلقة بالحركة والتنقل لأنّ الرائي هنا يصف حركة الموصوف. إن مختلف هذه الخيارات وفّرت للوصف فعاليات جديدة في الإبداع والتشكيل.

إن النظر إلى المؤشرات الدالة على اشتغال نظام الوصف في نص المصون يقف حجة لا ريب فيها على أهمية هذا المكوّن في سردنا العربي القديم ، هذا المكون الذي عُد من المهمّش والنوافل التي لا دور لها نلمس أهميته في النص من ناحية آليات التركيب و هيئات التأليف اللّذين يضمنان البناء والتماسك للوحدة الحديثة في النص.

من الوظائف الأخرى التي قام عليها الوصف نذكر أيضا وظيفة الفصل (fonction démarcative). فبالرغم من أن المدى الذي يشغله يعد كثيفا و يشير إلى تفاوت متدرج داخل فضاء القص. فإن الحُصري يحرص دائما على إبراز هذا المقطع المهيمن ضمن وحدة تامة ولكنها تتداخل مع السرد والحوار في أحيان كثيرة. و من شأن هذا التدخل "أن يخفف من حدة التغايُر النصّي (hétérogénéité textuelle), فالمقابلة بين الوصف والسرد ليست جلية بما أنهما يستخدمان التراكيب النحوية نفسها"[1].

كذلك نهض الوصف أيضا على الوظيفة الإنشائية (fonction poétique) وهنا نجد الوصف محسّنا من محسّنات الخطاب المنتجة والإبداعية (productive et créatrice) يدرجه في نظام جمالي من أهم خصائصه خاصية الإنشاء (propriété de composition) التي تنهض بوظيفة تزيينية وجمالية (ormentale et esthétique)، هذا دون أن ننسى أهم وظيفة قام عليها الوصف والأدب بصفة عامة وهي وظيفة الإيهام بالواقع (illusion de réalité).

يتحصّل مما تقدم تحليله أن الوصف من أهم الأنظمة اللغوية المعبّرة ذلك أنه حظي بتأثير نصي كبير إذ نجده يتخلص في أحيان كثيرة من هيمنة السرد، والكتاب قائم في جانب كبير منه على توصيف ظاهرة الحب. ويأتي السرد كمجهود يهدف إلى تكوين قصة تدور حول هذه الظاهرة باستخدام أداة رئيسية وفعالة ومهيمنة هي الوصف. ثم إنه (الوصف) كثيرا ما يحتوي على نظام فعلي (système d'action) يشير إلى بداية الحبكة (intrigue) وهذا ما أفضى إلى بناء نصّي من خصائصه الاكتمال الدلالي (la complétude sémantique) .

إن الوصف إذن مكون خطابي بامتياز ينهض بوظيفة إنتاج المعنى ضمن إطار فني إنشائي يحرر الوصف من متعلقاته وتشاركاته الواقعية، في هيئة جديدة لا تلغي الواقع ولكنها تتجاوزه وهي هيئة ارتقت بالنص إلى ذرَى فنية و جمالية ما كان لِيَطَالَهَا.

[1] – محمد نجيب العمامي: الوصف في النص السردي بين النظرية و الإجراء, ص 80

المصادر :

- الحصْري (أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري القيرواني): المصون في سرّ الهوى المكنون. دراسة وشرح وتحقيق الدّكتور النّبوي عبد الواحد شعلان، دار سحنون للنّشر والتّوزيع، 1990

المراجع العربية:

- ابن جعفر (قدامة) : نقد الشعر المطبعة المليحية، القاهرة ط 1935

- بربوش (حياة): شعرية الخطاب الروائي في السرد النسائي المغاربي ، المغاربية للطّباعة و الإشهار ط1 2011

- الخبو(محمد): الخطاب القصصي في الرّواية العربية المعاصرة من سنة 1976 إلى سنة 1986 دار صامد للنّشر والتوزيع،ط1،2003

- سويدان (سامي): أبحاث في النص الروائي،دار الآداب ط1 2000

- العسكري (أبو هلال): كتاب الصناعتين: الكتابة و الشعر، تحقيق محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا بيروت 1986

- العمامي (محمد نجيب): الوصف في رواية "ترابها زعفران" لادوارد الخراط، حوليات الجامعة التونسية عدد 46, سنة 2002

- المؤلف نفسه: الوصف في النص السردي بين النظرية والإجراء، دار محمد علي للنشر ط 1 2010

- قاسم (سيزا): بناء الرواية دراسة مُقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامّة للكتاب ط1984

- قسومة (الصادق) : طرائق تحليل القصة،دار الجنوب للنّشر،تونس ط1 2000

- القيرواني (بن رشيق): العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده، حققه وفصله وعلق على حواشيه محي الدين عبد الحميد: دار الجيل, بيروت، ط 5 1981، ج 2

- هامون (فيليب): في الوصفي, تعريب سعاد التريكي, المجمع التونسي للعلوم و الآداب و الفنون, بيت الحكمة ط 2003

المراجع الأجنبية :

-Adam Jean Michel et Petit Jean André, *Le texte descriptif : poétique historique et linguistique textuelle*, Paris, Nathan, 1989.

-Genette Genette, *Figure III*, Paris, Seuil 1972.

-Genette Genette, « Frontières du récit », *in L'analyse structurale du récit*, Communication, n°8, collection Points, Paris, Seuil, 1981.

-Hamon Philippe, « Qu'est-ce qu'une description », *in Poétique* , n°12, 1972.